

فرنسا على القيام بحملة صليبية الى الشرق، اذ كانت الهدنة القائمة بين الصليبيين وبين الملك العادل أخى صلاح الدين الايوبي أن تنتهى، وكانت مدينة بيت المقدس نفسها في يد المسلمين بعد أن استردها صلاح الدين، بل كانت فلسطين كلها في ايديه باستثناء صور وبعض المدن المتبقية للفرنجة على الساحل الشامى. بعد أن تكتل الشرق الأدنى الاسلامى على يد صلاح الدين، ولقيت ترحيبا من البابا الرومانى الرسلت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦م) الذي بادر بارسال الدعاة الى كل مكان فى الغرب لحض الناس على الاشتراك فيها. غير أن الامبراطورية الغربية والدول الأوروبية الأخرى لم تستطع وقتذاك تلبية تلك الدعوة بسبب الظروف التي ألمت بها والتي لم تسمح لها بالمساهمة الفعلية في حرب خارج أراضيها. بعد فتوح صلاح الدين الكبرى فى حطين والبيت المقدس. فاذا ظرنا الى الامبراطورية الغربية مثلا نجد انها كانت فى شغل شاغل عن الفكرة الصليبية الحرب التي ثارت بين أوتو الرابع وفيليب دوق موابيا ممثل بيت الهوهنشتاوفن . الأمر الذى حال بين كل من المانيا وفرنسا وانجلترا وبين المساهمة الفعلية فى حرب صليبية جديدة . ولذلك بقيت زعامة تلك الحملة المزمع قيامها فى يد البابوية الاقطاعيين من أهل الغرب. اذ كان من الشروط التي تم الاتفاق وفعلا قامت الحملة على هذا الأساس، واذا سرت حسابها نهائيا مع الدولة البيزنطية، عملت على تحويلها بعد ذلك عن غرضها الرأسي وعن الشواطئ المصرية الى مشروع هدم الدولة البيزنطية نفسها والاستيلاء على القسطنطينية، والخاصة أن هذه الحملة الرابعة تعبر عن ذروة اطماع الصليبيين فى الدولة البيزنطية . ولم يكن الصليبيون بحاجة إلى من يقنعهم بضرورة هذا المشروع الذي تقدمت به البندقية، وفى نظر قادة هذه الحملة عدوا قديما للصليبيين كنا اسلفنا ، اذ كان الكسيس ابن الامبراطور السجين المخلوع يطلب النجدة ضد عمه المغتصب للعرش. وكانت الامبراطورية الألمانية تريد أن تسوى حسابها هي الاخرى مع الدولة البيزنطية التي وقفت ضد مشاريعها التوسعية فى ايطاليا منذ أيام الامبراطور والذي يهم هنا أن هذه التيارات كلها جاءت موافقة لاهواء البندقية ورغباتها، وجعلت كلمتها هي الأولى فى أوساط الصليبيين، كما وعدهم بتزويدهم بما يحتاجون اليه بمجرد نجاحهم فى اقامة ابيه فى الامبراطورية البيزنطية . هذا، بل أن أهالي العاصمة البيزنطية اعتبروا الحملة واساطيلها قوة اجنبية معادية أعادت الى أذهانهم الذكرى الأليمة المتعلقة بأحداث الحملة الصليبية الأولى، والتي أحدثت جرحا لم يندمل بعد. وتطورت الحال بين بيزنطة واللاتين وانتهت الحوادث بقرار الامبراطور الكسيس الثالث واستيلاء الصليبيين على القسطنطينية واعادة اسحق انجيلوس واقامته امبراطورا فى أغسطس سنة ١٢٠٣م، بحيث تكون هناك كنيسة واحدة هي الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، أما السبب الثالث والأخير فهو أن التنظيم الاقطاعي الذي فرضه اللاتين على كان لا يمكن أن فبينما كان الغرب فى الاقطاعية والمحلية التي مركزية الحكم والادارة. الغرب، كانت المدينة هي العمود الفقري فى بيزنطة . كان نشاط الشرق تجاريا ويسود فيه الاقتصاد النقدي أو المالى. ومن هنا لم يكن من المتوقع أن تتأصل جذور النظام الاقطاعي فى أرض غير مهيأة لتقبله . بل كان لابد أن تلفظه فى أول فرصة مواتية . مما هيا الجو لطرده أو اختفت، بل الذي حدث هو أنه تكونت فى مدينة نيقية بأسيا الصغرى سنة ١٢٠٦م امبراطورية بيزنطة فى المنفى على رأسها صهر الامبراطور المخلوع الثالث. واسم هذا الامبراطور فى نيقية هو تيودور الأول لاسكاريس (١٢٠٤ - ١٢٢٢ م) . وقد ورد اسمه فى الأصول والمصادر العربية تحت اسم الاشكرى». ويلاحظ أن الكتاب والمؤرخين العرب دأبوا فى كتبهم وتأليفهم على تسمية أباطرة الدولة البيزنطية باسم «الأشكرى حتى انتهاء هذه الدولة على يد الأتراك العثمانيين فى أواسط القرن الخامس عشر. وبقيت هذه الامبراطورية حتى القرن الخامس عشر. وتكمن أهمية هذه الدول البيزنطية فى أن النجاح الفجائي السريع الذي أحرزه الصليبيون الغربيون لم يكن من المنتظر أن يستمر . وكانت هذه الحكومات البيزنطية فى المنفى مصدر متاعب وقلق لدولة اللاتين فى القسطنطينية . وأن يسود وبين اللاتين فى بيزنطة حسن الجوار ولكن زعماء الدولة الصليبية كانوا يتمون موقفا صلبا حبال الشعوب البلقانية وشعوب الشرق الأدنى. بل لم تلق عطايا وتولى الامبراطورية البيزنطية فى نيقية بعد قيودور لاسكاريس سنة ١٢١٢ م الامبراطور دوماكس فاتاتريس (١٢٢٢ - ١٢٥٤م) . ذلك أنه كان يرحب بالاتفاق مع أى قوة تعادى البابوية. وكايت البابوية وقتها فى صراع عنيف ضد الامبراطور فريديريك الثاني على المسائل الدنيوية. فكانت هذه فرصة مواتية لأن يجد الامبراطور فريديريك الثانى فى الدولة البيزنطية فى نيقية ميدانا لمساعدته فى صراعه ضد خصومه، وأن تجد الامبراطورية البيزنطية كذلك فى فريديريك مساعداً لها ضد اللاتين. يضاف الى ذلك أن مجرد فكرة قيام امبراطورية ثالثة كان مسألة تجعل الامبراطور فريديريك يعمل بكل السبل على هدم تلك والفاحص المدفق يرى أن نهاية الامبراطورية اللاتينية بدت وشيكة بعد سنة ١٢٤٤م ، ولم يؤخر نهايتها سوى ما وقع بين الطامعين فى العرش البيزنطي بعد نهاية حكم فاتاتريس سنة ١٢٥٤ م . على أن ذلك العامل الذى أبقي على امبراطورية اللاتين فى القسطنطينية، وجعلها تستطيع مواجهة المشاكل من كل ناحية قد انتهى باعتلاء ميخائيل الثامن باليولوجس عرش نيقية . وأن يعلن تحالفه مع جنوه بعد أن وعدا بجميع

الامتيازات التي تتمتع بها البندقية. وكان من الطبيعي أن ترحب جنوة بهذا العرض المغري والواقع أن التنافس التجاري بين جنوة والنبدقية كان عاملاً هاماً في توجيه كثير من حوادث الرق الأدنى خلال تلك الفترة من سواء بين الدول المسيحية ودولة المالك في مصر والشام.